مدخل عام

مثّل الفكر الفلسفي في فجر بغداد، الباب الذي دخلت من خلاله حضارات الفكر الآخر إلى العالم العربي الإسلامي بصورة عامة وإلى العالم العربي على وجه الخصوص، وكان صلة الوصل بالحضارات القديمة وفكرها وعلى الخصوص الفلسفة اليونانية القديمة، وفلسفات الشرق متعددة المذاهب والاتجاهات والحلول، الأمر الذي تجلى في فجر بغداد إبداع العقل العربي في شتى مجالات الحياة العلمية والفلسفية والفكرية.

إن التقاء الفكر الفلسفي العربي الإسلامي بأفكار الشعوب والأجناس البشرية الأخرى عن طريق الترجمات والسفارات والوفود تارة وعن طريق الفتوح والامتداد إلى شعوب بعيدة تارة أخرى، كان من أبرز الأحداث التي لها أكبر الأثر في بنية الحضارة العربية الإسلامية منذ أسس الخليفة المنصور مدينة بغداد دار السلام، وقد وصل هذا الالتقاء إلى أوجه، منذ البداية، في عهد الخليفة المأمون على وجه الخصوص.

هذا التواصل وهذا الانفتاح أنجز وتكامل وتم تخطيطه في بغداد، وفي (مدرسة بغداد الفلسفية) حصراً، حيث تم رفد الحضارة الإسلامية الوليدة، أو كل الحركة الفكرية الوليدة بالعلوم، والتي لم تكن موجودة بصيغها العلمية، وبشكل مكتوب ومدروس عند العرب، مثل علوم الهيئة والفلك والطبيعة والرياضيات والكيمياء والموسيقى والفلسفة بفروعها كافة، وكذلك بالمناهج والأساليب الهادفة، هذا الحدث الذي ولد ونما في بغداد وبرعاية الخلفاء وأولي الأمر للعلم والعلماء، أوصل الحضارة العربية الإسلامية إلى مستوى العالمية والإنسانية في طروحها وآفاقها وتأثيراتها وتأثرها..

هذه الدراسة حاولت جهد الإمكان أن تبرز وبشيء من التفصيل الحياة الفكرية في بغداد منذ تأسيسها وحتى عصر الفيلسوف الكندي ١٤٥-٢٥٢هـ/

٧٦٢-٨٦٦م، هدفها أولاً وأخيراً تسليط الضوء على الوجه المشرق لتراثنا وأصالة علمائنا الذين ضمهم ثرى بغداد في فجرها، وهو هدف تهون عنده كل الصعاب.

وأقول بعد هذا إن العمل في هذه الدراسة كان سهلاً وممتعاً في الوقت نفسه، كان سهلاً للكم الهائل من البيانات التي وثقته في القديم وفي العصر الحديث، والتي يكمل بعضها بعضاً.. وهو ممتع لصعوبة الخروج بإضافة ناضجة يشار إليها، بعد إضافات المفكرين السابقين، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك جلة، ومن الله التوفيق.

ومن أجل أن يضع الباحث خطواته الأولى نحو هذا الجزء القليل فضل أن تكون مضامين دراسته بصيغ قد لا تكون مألوفة، فكان الفصل الأول: في دراسة للبنى التحتية وعناوين التأسيس للفكر الفلسفي في بغداد، وكان الفصل الثاني في توثيق مفهوم (الفلسفة العربية الإسلامية)، بما هي فلسفة عربية إسلامية، من خلال تقيمها ودراسة علاقتها بأركان الفكر الفلسفي الأخرى، وهي علم الكلام وعلم أصول الفقه، وعلم التصوف بما هو علم، وقد وجد الباحث إن هذا المفهوم (الفلسفة العربية الإسلامية) يعاني العنت والازدراء من أهله قبل غيرهم.

وكان الفصل الثالث: في (حوار الحضارات) وعناوينها في الترجمة والانفتاح على الفكر الآخر بعد أن وجد الباحث ان علماءنا غفر الله لهم، لم يضعوا حداً فاصلاً بين مفهوم المدنية ومفهوم الحضارة، وهما مفهوما واحداً.

وكان الفصل الرابع والأخير في علمين من علماء الإبداع في فجر بغداد، لو قدر لعلمهما أن يستمر على وفق التطور الزمني، لكانت الأمة غير ما كانت عليه...

نطاق البحث:

اقتصر الكلام في هذه الدراسة على البواكير والنشأة للفكر الفلسفي في فجر بغداد وترك الحديث عن تطور هذا الفكر اللاحق ومدرسته البغدادية إلى فرصة أخرى، لأنها تستحق الخوض في غمراتها وتوجب التعمق في حيثياتها، فهي مدرسة مهمة، لها مقومات الدرس والتشخيص.

وتأسيساً على ذلك قامت هذه الدارسة على أربعة فصول رئيسة، ضمت ست عشر بحثاً تفرعت منها مقاصد ومطالب من أجل الوقوف على دقائق المسألة المطروحة، شملت عرضاً دقيقاً للفكر الفلسفي في فجر بغداد وتزامنت مع عصر الخلفاء العباسيين كل من مؤسس بغداد الخليفة المنصور وابنه المهدي، وعصر ابني المهدي كل من الهادي والرشيد، وعصر أولاد الرشيد الثلاثة كل من الأمين والمأمون والمعتصم، وعصر الواثق والمتوكل ابني المعتصم، وعصر المنتصر بالله ابن المتوكل..

درسنا في الفصل الأول: سمات الحياة الفكرية في فجر بغداد من خلال أربعة مباحث رئيسة، كان المبحث الأول في تأسيس مدينة بغداد الزوراء، فقد كان الخليفة المنصور دقيقاً في اختيار عاصمة ملكه ومركز خلافته، مخلصا في رعايته للعلم والعلماء.. ثم درسنا في مطلب آخر من هذا المبحث الاتجاه العقلي الذي كان زمن المنصور، كما درسنا ثقافة المنصور نفسه، لأنه كان متكلماً ومؤلفا في علم الكلام، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف لدى المتكلمين من أهل الصنعة على ما ينقل الجاحظ.. ودرسنا في المطلب الثالث من المبحث الأول: أصول التفلسف في بغداد، وهي أصول كثيرة متعددة كانت حصيلة علوم الأولين التي انتقلت إلى بغداد مع ما نقل من أرث الخلافة الأموية، وما وصل إليها من كتب خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز، وكان هذان العلمين من أشهر من اهتم بالفكر والفلسفة والكيمياء والعلوم القديمة..

ومن أصول التفلسف في بغداد أيضاً ما أضافه أهل الكوفة حاضرة الإسلام الغنية بتراثها الفكري، وكان الخليفة المنصور قد شجع العلماء في هذه المدرسة للانتقال إلى عاصمته...

وورث الفكر الفلسفي في فجر بغداد أيضاً علوم أهل البصرة وما أضافوه من الجدل المحتدم بين واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري، ودرس المطلب الرابع العلوم العقلية في بغداد والتفكير العقلاني فيها وقد وجدنا هذا التفكير يتسم بسمات بغداد وبجغرافيتها وبيئتها، وله مقومات بغداد وامتدادها.

وفي المبحث الثاني من الفصل الأول درسنا المعتزلة ونشأتهم، فرقهم، مبادئهم، وكيف اتخذوا من العقل والعقلانية دليلا لمسيرتهم، وعنواناً لطروحاتهم، ووجد الباحث إن فرق المعتزلة سواء منها البصرية أو التي تأسست في بغداد بعد ذلك، كانت تسهم على حد سواء في حركة الفكر الفلسفي في فجر بغداد، حتى وجدنا الفكر الوافد من البصرة يزدهر ويطغي على غيره من الأفكار التي كانت تملأ الساحة الفكرية ببغداد، ولاقى فكرهم هوى من نفوس النخبة، بل أضحى الفكر المعتزلي زمن الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق الفكر الرسمي للدولة.

ثم تناولنا في المطلب الثاني من هذا المبحث العلاقة بين مؤسس بغداد الخليفة المنصور وعمرو بن عبيد من مؤسس الاعتزال، فقد كان الخليفة المنصور يلتمس من زميله في الدراسة أيام الشباب المزيد من النصح، والمزيد من الموعظة، وكان عمرو بن عبيد أميناً في طرحه صريحاً مع الخليفة في لهجته؛ هذه العلاقة بين مؤسس بغداد ومؤسس المعتزلة مكنت الخليفة من الاطلاع التام على أفكار المعتزلة وطروحاتهم العقلية، ولابد لهذه العلاقة المبكرة من أثر في الفكر الفلسفي البغدادي.

وفي المطلب الثالث من المبحث الثاني: تناولنا أصول الاعتزال الخمسة وعلاقة هذه الأصول بالفكر الفلسفي ببغداد، ثم تناولنا بالبحث فرق المعتزلة

البصرية منها والبغدادية وما انفرد كل منها عن الآخر أو ما أضاف إلى الفكر الاعتزالي من فكر وأشرنا أيضاً إلى بعض الفرق المحسوبة على الاعتزال وهي في حقيقتها منحرفة عنه مثل أصحاب أحمد بن حائط، وأصحاب فضل بن الحدثي وغيرهم.

وكان المبحث الثالث من الفصل الأول في علم من أعلام المعتزلة، هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف، اتخذناه نموذجاً للمتكلم المعتزلي، فقد أسس العلاف فرقته (الهذيلية) في البصرة ولكنه كان رأساً للاعتزال في بغداد، يدير مجالس النظر والجدل في قصور الخليفة المأمون بجداره وهي ما هي/ شهد المبرد هذه المجالس فقال عن العلاف: أنه فصيح القول جيد المناظرة، استشهد في مجلس واحد بثلاثمائة بيت من الشعر، ودرسنا في هذا المبحث ضمن عدة مطالب أفكار العلاف في مسألة (صفات الله تعالى) ومسألة (خمود أهل الجنة) ومسألة (الحركة والسكون) وعرضنا في المطلب الأخير مثال (الرأي، والرأي الآخر في مجالس النظر ببغداد).

وفي المبحث الرابع والأخير من الفصل الأول درسنا رائدا آخر من رواد الفكر الفلسفي في بغداد نزح إليها من البصرة على رأس فرقة أخرى من فرق الاعتزال (النظامية) وهو إبراهيم بن سيار النظام باعتباره أنموذجا للفيلسوف المعتزلي، كان النظام مفكرا مؤسسا للفلسفة، تحتفظ له بغداد بذكر حسن، وله في أركانها مساحة واسعة، وفي أروقتها صوت مسموع، كان وأستاذه العلاف وباقة نظرة من مفكري بغداد في زمانه، رواد للفلسفة ومبتكرين لفنونها، مزجوها بعلم الكلام لتستقر في ديار الإسلام واحدة من أدلة الحجاج ومقارعة البرهان بمثله، مهدوا لظهور الكندي فيلسوف العرب الأول، كان الجاحظ واحداً من طلابه قال عنه: كان النظام واسع العلم، غواصاً على الدقائق، مأمون اللسان، قليل الزيغ جيد القياس.

وإليه عنى تلميذه الشاعر أبو نؤاس في قوله :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

يقول سامي النشار: إن النظام استمد من الرواقين فكرة أن الروح جسم لطيف، ثم اقترب النظام ثانيه من أفلاطون في قوله: إن الجسم سجن أو ضابط للنفس.. وقد ناقش الباحث هذه الأفكار من خلال عدة مطالب: منها فكرة (الجزء والطفرة) وفكرة (الروح والنفس والجسم) ومعالجات النظام لهذه المفاهيم، وناقشنا أيضاً (الخلق والكمون) التي أبدع بها النظام وسبق عصره في طروحاته.

ودرس الفصل الثاني من خلال أربعة مباحث الفلسفة العربية الإسلامية وأركانها، فكان المطلب الأول من المبحث الأول في الفلسفة، معناه وحدودها وعين ماهيتها، وفي المطلب الثاني، كانت دراسة المقصود بالفلسفة العربية الإسلامية ولماذا لم تكن فلسفة عربية أو فلسفة إسلامية، وكلتاهما صورة واحدة لشجرة وارفة، ولكن الباحث وجد الأصوب عدم الكلام عن فلسفة عربية دون ربطها بالإسلام، لأن الكلام عن فلسفة إسلامية من دون ربطها بالعربية أو عن فلسفة عربية دون ربطها بالإسلام، عمل لا يصيب كبد الحقيقة ويبقى بعيداً عنهما معاً، درسنا في مطلب آخر مسألة تواصل هذه الفلسفة حتى اليوم أم انقطاع، فوجد الباحث أن القول بأن الغزالي قضى على الفلسفة في المشرق قضاءً مبرماً زعم خاطئ لا يدل على فهم لحقائق الأمور، بل إن هذه الفلسفة العربية والاسلامية، باقية مستمرة..

وكان المبحث الثاني في (علم الكلام في بغداد) أوضحنا من خلال عدة مطالب فيه أن هذا العلم قام فجأة فتى شاباً لم تكن له طفولة، احتضنه القرآن كواحد من علومه وعرف فيما بعد باسم (كلام الله)، ثم جاءت من رحم (علم الكلام) العلوم الثلاثة الأخرى. درسنا في المبحث الثالث من الفصل الثاني: علم

أصول الفقه وأوضحنا الصلة بينه وبين الفلسفة العربية الإسلامية، وكيف كان أصلهما واحداً، ثم درسنا ضمن عدة مطالب في هذا المبحث أدلة الأحكام في عصر الاجتهاد وعلاقتها بالفكر الفلسفي في فجر بغداد. وحددنا مصادر أدلة الأحكام الأصلية وهي القرآن والسنة حيث لا مساغ للاجتهاد في معرض النص وبخلاف ذلك كانت الأدلة الفرعية، أرشدت إليها نصوص القرآن والسنة وهي الإجماع والرأي ومن أهم أنواع دليل الرأي كان (دليل القياس)، ثم فصلنا الأدلة الأخرى وهي موضع خلاف..

وختمنا هذا الفصل بمبحث رابع درس المنابع الأساسية لعلم التصوف في بغداد دار السلام، وبعد أن عرفنا أن الزهد كان أساس التصوف درسنا أصل التسمية، ورجحنا أنها نسبة إلى الصوف شعار فرقتهم، ثم فصلنا الطريق إلى التصوف، وأثبتنا بالأدلة أن علم التصوف أصله بغدادي، جاء به الزهاد من أهل الكلام البغدادي، وهذا ينهض دليلاً على أن علم التصوف بشقه النظري ولد من رحم (علم الكلام)، ومصداق قولنا هذا أن منظري التصوف المؤسسون في فجر بغداد، وهم الشيخ معروف الكرخي والحارث بن أسد المحاسبي، والسري السقطي كانوا من متكلمي بغداد الزهاد المعروفين.. وقد عززنا هذا بدراسة موجزة لهؤلاء الصوفية من أهل بغداد.

أما الفصل الثالث، فقد فصل القول فيما يعرف في عصرنا الحاضر (حوار الحضارات) أو صدامها، أو صراعها أو ما قاله الستون مثقفاً أمريكياً في أمور الصلة الثقافية بين الشرق والغرب، كان هذا الفصل منصباً في الترجمة وحركتها في فجر بغداد، تم دراستها من خلال ثلاثة مباحث أكدت الصلة بين الفكر العربي الإسلامي وحضارات الأمم، وأثر ذلك في تطوير الفكر الفلسفي البغدادي، درس المبحث الأول، الترجمة زمن الخليفة المنصور وأشار إلى الكتب المهمة التي ترجمت من اليونانية أو الهندية أو الفارسية في زمانه، ودرس مطلب آخر:

الترجمة زمن الخليفة المهدي، ودرس مطلب ثالث، الترجمة زمن الخليفة الهادي، وقد رد هذان المطلبان قول البعض أن الترجمة لم تلق الاهتمام زمن الخليفة المهدي وابنه الهادي كما لقيته زمن المنصور من رعاية، وأثبت بما لا يقبل الشك أن حركة الترجمة كانت مستمرة لم تتوقف بموت خليفة أو أي من رعاة الترجمة، بل هي تستمر لأسباب فصلتها الدراسة.

ثم درس مطلب آخر الترجمة زمن الخليفة هارون الرشيد، فوجد فيها إبداعاً كان أساساً متيناً للترجمة زمن الخليفة المأمون التي ازدهرت في عصره الترجمة بشكل ملحوظ. وأكد الباحث أن الترجمة لم تتوقف في العصور اللاحقة حتى زمن المتوكل بل استمرت تعطي ثمارها بعد ذلك.

ثم درسنا في المبحث الثاني من الفصل الثالث، الفكر الفلسفي في بيت الحكمة ودور الترجمة من خلال دراسة اكثر من عشرين شخصية من رواد البيت، ابتداءً من النجاشعة الأطباء المترجمين ومروراً بابي يحيى البطريق، والفزاري وسلم صاحب بيت الحكمة وسهل بن هارون، ويحيى ابن البطريق والحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي ويوحنا ابن ماسويه والفضل والحسن ابني نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم.

ولأهمية بعض الشخصيات الكبيرة التي ا نلت في الترجمة ولما لها من نشاط فلسفي وامتداد علمي مرموق، فقد أفردنا ا ـ ـ الثالث والأخير من الفصل الثالث لدراسة الفلاسفة المترجمين وهم حنين بن اسحق وقسطابن لوقا وثابت بن قرة.

ثم جاء الفصل الرابع والأخير قمة يتربع على رأس فصول الدراسة السابقة، فهو نتاجها وخلاصتها سميناه الإبداع الفكري في فجر بغداد، تناولنا بالدراسة في مبحثه الأول: حياة الكيميائي الفيلسوف والعالم جابر بن حيان كنموذج فذ للفكر الفلسفي والعلمي البغدادي، فقد كان هذا الرجل متعدد المواهب

واسع المعرفة، إمام أهل الكيمياء في زمانه، اكتشف جابر العديد من النظريات، ولكنه أبدع وتخطى زمانه كثيراً في نظريته الرائدة (نظرية موازين العلوم). إن هذه النظرية لا تشكل فقط فصلاً في التاريخ البدائي للعلم كما تعني العلوم في عصرنا الحاضر، ولكنها أيضاً مقدمات ذكية لمعطيات العلوم المعاصرة، وإرهاصات تقدمية لعلوم نفعت البشرية حتى اليوم، بعد أن اتخذها علماء الغرب قبل الشرق خطاً للبداية ونقطة للشروع.. ولكن أبناء الشرق كانوا ضحايا مؤامرات الأجنبي الطامع.

وتناولنا في المبحث الثاني والأخير من الفصل الرابع: الكندي فيلسوف العرب الأول في منهجيه الرياضي والتجريبي/ كنموذج لخلاصة الفكر الفلسفي في فجر بغداد، أوضحنا من خلال جملة مطالب في هذا المبحث، تأسيس الكندي للفلسفة العربية الإسلامية، بما هي فلسفة عربية إسلامية، تتحاور مع فلسفة الإغريق، وتتجاور مع فلسفات الشرق، وتنحت من ألفاظهما ما يخدم قضية الامة، وتستخدم من أساليبهما ما يستقيم به العرض، تأخذ بمقدار وتعطي بقدر، وتحافظ على الأصول بمقدار ما تهدم الذي يناقض الشرع، وتبني ما ينسجم والبيئة في عملية منهجية، اعتمدت التوفيق بين الشريعة السمحاء وطروحات الفكر الآخر، بما تمضي معه الأمة إلى حيث المستقبل الزاهر.. ولكن الباحث وجد أن التيار الذي تمخض عن سيطرة (إمرة الأمراء) ما بعد الخليفة الواثق بن المعتصم وسيطرة قادة العسكر الأتراك، عمل على إبعاد الفكر التقدمي الحر الذي تزعمه الكندي وتلميذه الأمير أحمد بن الخليفة المعتصم، فلم يتمكن معه الأمير أحمد من الخلافة التي كان المرشح الأوفر حظاً لها لا لسبب إلا لأنه تلميذ الكندي الفيلسوف، الأمر الذي قد أضر بالأمة كثيراً وأوصلها إلى حيث يقودها الأجنبي الذي تهمه مصلحته الذاتية، دون مصالح الإسلام وأمته وشرعه وحضارته.

وفي ختام فصول الدراسة الأربعة، عززناها بخاتمة، ضمت خلاصة لطروحاتها، وشيئاً من الاستنتاجات وما قد يرقي إلى التوصيات.. مؤكدين هنا مرة ثانية: إن الثورة الفكرية التي أحدثتها مدرسة بغداد الفكرية والفلسفية والعلمية في مرحلتها تلك، إنما هي ثورة معرفية انطولوجية أخلاقية سياسية، أتت أكلها في حينها وبعد حينها، وأينعت ثمارها بسرعة.. لعل هذه الدراسة قد نجحت بحسب القدرة والإمكان على إبراز جانبها المشرق، وهي إن صح هذا فقد حققت أهدافها...

والباحث في نهاية كلامه عن نطاق البحث يقول الصدق، إن في هذه الدراسة بعض الأفكار قد يعتقد البعض إنها هفوات، أو عدم وضوح في الفكر، ولكن الباحث يعنيها ولعلها بعضاً من شطحات الصوفية التي عشقها وصار منها وصارت منه، لا ينفك من أسرها، ولا قدرة له على الخلاص من قيدها، وليس له إلا سماحة أهل السماحة، ولكنه وهو على يقين لا يبغي منها إلا الخير... وعليه أقول: إن ما في هذه الدراسة من تأويلات فهي من اجتهادات كاتبها، وإن كان فيها من ومضات خير وطرح ناضج، فهو من فيض توجيهات شيوخه وأساتذته، وأخص بالذكر منهم: الأساتذة الدكاترة العلماء حسين علي محفوظ وحسين أمين ومحمد سعيد رضا وعبد الجبار ناجي وعلي حسين الجابري وحسن مجيد العبيدي وآخرون غيرهم، جزاهم الله عني خيراً.

التعريف بأهم موارد الدراسة ومصادرها

أما موارد هذه الدراسة، واهم مصادرها ومراجعها، فقد كانت متنوعة تنوع الفكر الفلسفي في فجر بغداد، فكانت تزيد على الخمسين مصدراً، وكانت مراجعها تزيد على الثمانين مرجعاً، رتبت في جريدة المصادر والمراجع في آخر الرسالة، وجد الباحث إن من المناسب في ترتيبها، أن تتدرج المصادر على وفق تاريخ أصحابها الأقدم فالأقدم، أما المراجع فقد كان نسقها على وفق الحروف

الأبجدية لأسماء مؤلفها، يزعم الباحث أن في هذا تعميم الاستفادة منها، وتمكين الدارسين والقراء من معرفة المصادر القريبة من الحدث أو البعيدة عنه.

وقد تمحورت تلك المصادر على أربع مجاميع: الأولى: كانت تضم كتب مصادر التاريخ الإسلامي، والمجموعة الثانية: ضمت كتب العقائد والأصول وعلم الكلام والفلسفة، وكانت المجموعة الثالثة: في كتب التراجم والرجال، والمجموعة الرابعة والأخيرة: كانت تضم مصادر الأدب العربي.

وسنحاول تسليط الضوء على كتب كل مجموعة من تلك المجاميع، وبيان مدى استفادة الدراسة من كل مصدر منها:

١. مجموعة كتب مصادر التاريخ الإسلامي:

اعتمدت الدراسة في عرضها التاريخي على أربعة كتب رئيسة، كان مؤلفوها قد عاصروا الأحداث التي درستها الدراسة، وقد يكون البعض منهم قد شارك في أحداثها بصيغة أو بأخرى: كان أقدمهم احمد بن يحي البلاذري (ت ٢٧٨هـ/٨٩٢م) في كتابه (أنساب الأشراف) وهو من أوثق المصادر التاريخية التي سبقت الطبري، قد تضمن في بعض أجزائه بحثاً وافياً ومتقناً للأوضاع السياسية قبيل قيام الدولة العباسية وعند قيامها، وإبراز دور أعلام الأسر العربية الشريفة، التي واكبت الأحداث.

وكان احمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٣م) في كتابه (تاريخ اليعقوبي) قد برز جانباً من أخبار الملاحم والفتن والأحداث، لاسيما في جزئه الثالث الذي غطى أخبار الخلفاء العباسيين إلى زمن المعتمد بالله سنة (٢٥٩هـ/ ٨٧٢م) أي إلى فترة ما بعد الكندي الفيلسوف.

أما أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ /٩٢٥م) في كتابه (تاريخ الرسل والملوك)، فقد غطى معظم الأخبار التي اعتمدتها

الدراسة في فصولها الأربعة، وكانت إشاراته عن الفيلسوف الكندي، مرتكزا بنى عليها الباحث بعضاً من أفكار الدراسة باعتباره قريباً من الأحداث (ولد عام ٢٢٤هـ /٨٣٩م).. وكتاب الطبري بعد هذا كان من اعظم الموارد التي استقرت على شواطئها أخبار هذه الدراسة، وكان مادة خصبة غطت معظم فصولها وبحوثها، وهو بحق يقف على رأس المصادر بالنسبة لهذه الدارسة.

أما المصدر الرابع والرئيسي الذي أغنى الدراسة باخباره، فقد كان كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لمؤلفه المؤرخ الثبت أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ /٩٥٧م).

ولا ينسى الباحث إشاراته التي اعتمدتها دراسته بالرجوع إلى كتاب (بغداد مدينة السلام) لابن الفقيه الهمداني (٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)، وكتاب ابن الأثير(ت ٦٢٠هـ/١٤٣٢م) (الكامل في التاريخ)، وكتاب ابن الجوزي (٥٩٧هـ/١٢٠٦م) (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، وكتاب ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٥٣م) في (البداية والنهاية في التاريخ)، ومقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) وأخيراً وليس آخراً كتاب السيوطي (٩١١ هـ/١٥٠٥م) (تاريخ الخلفاء).

٢. مجموعة كتب العقائد والكلام والفلسفة:

ولقد شغلت هذه المجموعة حيزاً كبيراً من بين مجموع المصادر التي اعتمدت عليها في الإعداد، وقد زادت كتب هذه المجموعة على العشرين مصدراً، ولا غرابة في ذلك فإن الموضوع بمجمله درس في العقيدة وعلم الكلام وأسس للفلسفة العربية الإسلامية، بما هي فلسفة عربية إسلامية، التي قعد قواعدها ابن بغداد الكندي الفيلسوف وجدد أسسها وأوضح مسالكها بعد ثلاثة قرون الإمام الغزالي، وهذا الشيخ فيلسوف عربي مسلم حتى في كتابه (المنقذ من الضلال)، أبعد كتبه عن الفلسفة، درست في ضوء ذلك (الفكر الفلسفي في فجر بغداد) وهذا الفكر كما وجده الباحث يضم أركان العلوم العقلية الأربع ذلك الزمان، علم

الكلام، وعلم الأصول، وعلم التصوف بما هو علم فضلا عن الفلسفة العربية الإسلامية.

استخدمت في الفصل الأول من الدراسة بمباحثها الأربعة: كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري (ت ٣٢٤هـ /٩٣٤م) وكتاب (المختصر في أصول الدين) للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وكتاب (الفرق بين الفرق) لأبي منصور عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ /١٠٣٦م)، وكتاب (الفصل بين الملل والنحل) لابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ /١٠٦٣م) وكتاب (الملل والنحل..) لأبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م).

وكان كتاب صاعد الأندلسي (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) (طبقات الأمم) وكتاب القفطي (ت ٦٤١هـ/ ١٢٤٨م)، (أنباء العلماء بأخبار العلماء) والجزء الثاني من كتاب ابن أبي أصيبعة، (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، موارد مهمة جداً لجميع فصول الدراسة، وعلى الخصوص منها الفصل الرابع، حيث أحصينا مصنفات جابر بن حيان والكندي الفيلسوف في ضوء القوائم المفصلة التي ضموها ترجمتهم لهذين العلمين... وكانت مختارات رسائل جابر بن حيان، تحقيق المستشرق بول كراوس، وكذلك كتاب جابر بن حيان، (مصنفات في علم الكيمياء) بعناية المستشرق ارك هولي ماير، ورسائل الكندي الفلسفية، تحقيق الدكتور عبد الهادي أبو ريده، ولرسالتين في الحدود لجابر بن حيان والكندي اللتين حققهما الدكتور عبد الأمير الأعسم، موارد خصبة ومصادر غاية في الأهمية حررنا في ضوئها الفصل الرابع من الدراسة بمبحثيه الأول والثاني، وكانت رسالة القشيري (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) في التصوف مصدراً مهماً في كتابه المبحث الرابع من الفصل الثاني. وهناك مصادر مهمة اعتمدت عليها نجدها متناثرة في حنايا الدراسة...

٣. مصادر الطبقات وتراجم الرجال:

أولينا كتب الطبقات وتراجم الرجال الأهمية الكبيرة التي تستحق من بين المصادر التي استفدت منها في إعداد الدراسة، هذا لأن الدراسة برمتها لا يخلو منها فصل دون أن ندرس فيه عالما من أعلامنا أو دراسة كتاب من كتبه، وهذا يستلزم الاعتماد المتزايد على هذه المصنفات، وعلى الجوانب المهمة التي أضاءتها، أو أوضحت عطاءها الفكري والثقافي والاجتماعي خلال الفترة التي عاشها رجال الفكر الفلسفي في فجر بغداد.

وبما أن هذه الكتب لم تختص بالترجمة لطبقة معينه، كما كانت كتب الطبقات التي اختصت بطبقة معينه من رجالات المجتمع الإسلامي، وإنما تنوعت الكتب التي رجعنا إليها في ترجماتها بتنوع فنون أولئك الرجال...

بعضها اختصت بالترجمة للمؤلفين والعلماء والكتاب، كما وجدنا ذلك في فهرست ابن النديم، وبعضها الآخر ترجمت لرجال المجتمع البارزين على المسرح السياسي والاجتماعي وفي غير ذلك، كما وجدنا ذلك عند ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان..) وقسم ثالث من مواردنا التي اعتمدنا عليها: ترجم للأدباء والشعراء، كما وجدنا في كتاب الحموي (معجم الأدباء) وأنشأنا بهذه الصيغة تكاملاً شبه موضوعي بين هذه الكتب، استطاعت هذه التراجم مجتمعة أن تبرز أثر الفكر الفلسفي في فجر بغداد خلال دراسة أهم الشخصيات الفكرية والأدبية..

وكان أول هذه الموارد المصادر كتاب (الفهرست) لابن النديم الوراق (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) الذي يعد وثيقة أمينة تشير إلى ابرز ما وصل إليه رجال الفكر الفلسفي في بغداد في حياتهم العقلية والفكرية،وقد غطى كتاب (الفهرست) فترة الدراسة برمتها، لاسيما في مقالته الخامسة، بفنونها الخمسة عن أخبار المتكلمين وعلماء هذا الفن، وكذلك في مقالته السابعة وهي ثلاثة فنون في الفلسفة والعلوم القديمة، والمقالة التاسعة وهي فنان في المذاهب والاعتقادات، ومقالة الفهرست

العاشرة الأخيرة وهي تحتوي على أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء، والمحدثين على زمن ابن النديم.

مؤكداً هنا أن كتاب الفهرست كان زاد الدراسة الوفير الذي يذهب عن صاحبها التعب كلما طال به المسير، فلم نجد مطلباً واحداً من مطالب الرسالة ببحوثها وفصولها دون الرجوع إلى كتاب ابن النديم، (الفهرست)، وتعد الصفحات التي أحصينا بها كتب جابر بن حيان، وكتب أبي اسحق يعقوب الكندي الفيلسوف عيالاً على كتاب الفهرست إلى جانب كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة كما نوهنا سابقا..

وجاء كتاب ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) بالدرجة الثاني بالاعتماد عليه بعد (الفهرست) بما حواه من أخبار مهمة عن بعض رجالات (بيت الحكمة العباسي)، وجملة الشخصيات الأربعين الذين درستهم الرسالة، وهو كتاب موثق، لا غنى للدارسين والمؤلفين في التاريخ الإسلامي من الرجوع إليه..

ثم جاء كتاب ياقوت الحموي، (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) (معجم الأدباء..) مورداً مريئاً ومصدراً كبيراً عنى بأسماء الكثيرين من رجالات الفكر الفلسفي في فجر بغداد.. وكانت موارده مكملة لكتاب ابن خلكان، وموثقة لها..

والباحث رجع إلى كتاب الخطيب البغدادي (ت ٤٣٦هـ/١٠٧٠م) (تاريخ بغداد) في توثيق معلوماته لا سيما الجزء الأول الخاص في أخبار بغداد وتاريخ تأسيسها، واختيار موقعها.

وكان في الدراسة من كتب وتراجم مبثوثة في حناياها وفصولها الأربعة.

٤. مجموعة كتب مصادر الأدب العربي:

رجعنا في إعداد الدراسة إلى بعض كتب الأدب التي عاش مصنفوها الأحداث وأسهموا في حركة الفكر الفلسفي في فجر بغداد وكانوا شهوداً على

أحداثها في المقدمة من هؤلاء الرجال، أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٨٩م) في كتابه (البيان والتبيين) وهو يتكلم عن شيخه النظام وينقل عنه موارد طريفة، وشهادات غاية في الدقة، لاسيما في المبحث الرابع من الفصل الثاني كما اعتمدنا هذا الكتاب في تثبيت قائمة الأسماء لأشخاص موصوفين بالزهد من أهل التصوف في بغداد وكانوا علماء كلام، واعتمدنا أيضا على كتاب (الحيوان) للجاحظ، وهو يتحدث عن الكندي الفيلسوف، واعتمدنا على كتاب (البخلاء) للجاحظ أيضا وهو يتحدث عن بخل شيخه أبي الهذيل العلاف والفيلسوف الكندي وامتعضت للصورة الكاريكاتيرية التي رسمها الجاحظ لهذين العلمين دون وجه حق..

ورجعنا كذلك إلى كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، وهو ينقل حديث النظام مع واحد من شباب بغداد،.. ولم ينسى الباحث كتب الرحلات، مثل رحلة ابن جبير أو رحلة ابن بطوطة، وهي تتحدث عن بغداد في زمن لاحق للزمن الذي درسناه، من أجل المقارنة والخروج ببعض الأفكار.

٥. المراجع العربية، وما ترجم من كتب المستشرقين:

أما الكتب العربية، فقد كانت تحليلاتها ونتائج أحكامها موضع تقدير الباحث وقف عندها طويلاً واستفاد منها كثيراً، أخص بالذكر منها كتب أستاذنا الدكتور حسام الآلوسي التي تجاوزت العشرين كتاباً ودراسة، فقد كنت قد عشتها منذ أكثر من أربعين سنة، وكانت خير دليل في عملي في هذه الدراسة وأوسع سبيل أرحب الذي أوصلني إلى تمامها.

أما ما تُرجم من كتب المستشرقين إلى العربية، فقد وجد الباحث فيما قرأ منها، تجني لا يحتمل، ومفارقة عجيبة في تزوير الحقائق، حاول الرد على

بعضها بحسب قدرته وعلمه..ولم ينسى الباحث بعض المتصفين من هؤلاء المستشرقين فأشار إليهم.

هكذا أنجزت اليوم آخر ما يمكن أن يكتب في هذا الكتاب بقدر ما تسمح به السنة الثانية بعد السبعين، وقد تمرد فيها الشريان الأبهر، ولم يعد يعمل كما كلفه الله تعالى.. ويبدو أن شمعة العمر قد شارفت على الذبول، وإن دقات الساعات الأخيرة قد باتت تسمع من قريب، ومازال في النفس طموح مشروع، ومازالت مشاريع تتزاحم على ساحة الباحث الشيخ، نسأله تعالى أن لا يستجيب لداعي الشرايين، ويحقق ما يصبو إليه الباحث، وهو سبحانه ينظر إلى دمعاته التي تساقطت على السطور الأخيرة في هذه الورقة.. فهو تعالى نعم المولى ونعم المجيب.

الباحث